

الفصل الثالث:

تلقي الجنون في اللغة

اللغة سلطة.

اللغة تعترف بالجنون.

اللغة تصنف الجنون.

إن فكرة التسمية إذا كانت اعترافاً بالشيء ووجوده فإنها - من جهة أخرى - انحراف عن حقيقته وتنوعه في الواقع، أو ما يمكن رصده وتأمله على مستوى الذهن، إلى تمثله في الذهنية الثقافية مفهوماً قاراً يتم تعميمه بنمطية بالغة على المستهلكين. ومن ثم يمكن القول بأن اللغة - من هذا الجانب - سلطة تشريعية، لأنها تحمل في غضون التسمية «تجربة الوعي بالشيء»، والوعي بالشيء هو في محصلته النهائية: سلسلة من أفعال الترميز والتأويل والتصنيف والإكراه...

الباحث

اللغة سلطة

اللغة - كما يقول رولان بارت^(١) - سلطة تشريعية، واللسان قانونها؛ وقد لا نلاحظ ذلك الوجود المتسلط؛ لأننا ننسى أن كل لسان تصنيف، وأن كل تصنيف ينطوي على قهر. وليس الكلام أو الخطاب تبليغاً - كما قد يُظنّ - ولكنه توجيه وإخضاع معممان^(٢)، لأنه منظومة مكونة من: مفردات، وعلاقات نحوية وبلاغية، وتراكيب وترميز: «تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم، وفي كيفية مفصلتهم له، وبالتالي في طريقة تفكيرهم، إننا نفكر كما نتكلم، الشيء الذي يعني أن اللغة، التي تحدد قدرتنا على الكلام؛ هي نفسها التي تحدد قدرتنا على التفكير»^(٣).

(١) ينظر: اللغة والسلطة، نص مترجم ضمن: دفاتر فلسفية: اللغة ٥، (نصوص مختارة)، إعداد وترجمة: محمد سيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب - الدار البيضاء، ط ٤، ٢٠٠٥م (ص ١٠٤).

(٢) ينظر: اللغة والسلطة، نص مترجم ضمن: دفاتر فلسفية: اللغة ٥، (ص ١٠٤).

(٣) هذا القانون ساقه د. محمد عابد الجابري بالترجمة عن آدم شاف، واعتراض د. جورج طرابيشي على لفظة «التحديد» في تعليق الجابري لأنها تعارض مع رأي شاف، الذي استخدم لفظة «تأثير» تخفيفاً لمبالغات المدرسة الألمانية، وتحاشياً لاستخدام لفظة «تحديد» التي هي - في رأيه - جبرية أكثر مما ينبغي. راجع: د. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، دار الطليعة، لبنان - بيروت، =

وهنا تبرز العلاقة بين اللغة- بوصفها وسيطاً معرفياً- وبين الذات المدركة وبين عملية الإدراك نفسها، فإذا كانت اللغة من حيث النشأة مقترنة بالذات/ لحظة الوعي الأولى/ الفردي ابتداءً؛ كون «الإنسان سابق نوعاً ما على تاريخه وشروطه الاجتماعية التي تنبع منه»^(١)، فإنها بعد ذلك تشكل قالباً إدراكياً صلباً يواجه التفكير، ويحدد أنماط الفهم تجاه الأشياء. أي: إن اللغة تكون مكوّناً بالنظر إلى خضوعها إلى لحظة الوعي الفردي/ الأولى الذي يصنعها، وتكون مكوّناً بالنظر إلى تأثيرها ك: عقل/ ينشئ سلطة معرفية واجتماعية، تتحكم في رؤية الأشياء وفهمها؛ بصفتها جزءاً من المخزون الثقافي العام الذي يعود إليه الأفراد، ويتحملونه^(٢) جزءاً من ثقافتهم عند ممارستهم لأنشطتهم

= ط ٢، ت ١٩٨٥ م (ص ٧٧)، وجورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي - نظرية

العقل، دار الساقى، بيروت - لبنان، ط ٢، ت ١٩٩٩ م (ص ١٢٧).

(١) تيري إيغلتن، دراسات نقدية عالمية (٢٩)، ترجمة: نادر ديب، منشورات وزارة

الثقافة، دمشق، ط ١، ت ١٩٩٥ م (ص ١٠٦).

(٢) الباحث يستقطب هذا اللفظ بثقله الاصطلاحي من علم الحديث، حيث

يستعمل في تلقي الحديث عن الشيخ بإحدى طرق التحمل الثمانية المعتمدة.

وكذلك «يتحمل» مستخدمو اللغة «وعيها» بالأشياء وحساسيتها تجاهها، من

خلال تلقيهم لها.

ينظر: مصطلح التحمل في علم الحديث، محمد صديق المشاوي، قاموس

مصطلحات الحديث النبوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، مصر - القاهرة،

ط ١، ت ١٩٩٦ م (ص ٣٧) مصطلح (تحمل الحديث)، د. محمد أبو الليث

الخيرآبادي، معجم مصطلحات الحديث وعلومه وأشهر المصنفين فيه، دار

الفنائس للنشر والتوزيع، الأردن - عمان، ط ١، ت ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٩ م

(ص ٣٣) مصطلح (تحمل الحديث) برقم (١٢١).

المعرفية والاجتماعية المختلفة، بغض النظر عن وجود الأشياء أنطولوجياً في العالم الخارجي. فالواقع ليس هو الموجود بالفعل، بل يتحقق في: القدرة على فهمه وتصوره في الذهن، ومن ثم فهو متعدد في الذهنيات الثقافية؛ تبعاً لتلقيه وللقدرة على فهمه. ولأن تعقل الشيء (= الإدراك) ليس الشيء ذاته، بل يتحقق بـ «أن تُنتزع الصور في المواد عن موادها، ويصير لها وجود آخر غير وجودها الأول»^(١).

ولكي تكون هناك وقائع تستحق الوجود فـ «لا بد من وجود جهاز من المفردات، يمكن وصفها بها. ومن دون جهاز قبلي من المفردات، التي تصفها أو تنقلها إلى موقف ما، لا يمكن أن تكون هناك وقائع من أي نوع»^(٢). وكما يقول جيانى فاتيمو: «كل تجربة في الحقيقة هي تجربة تأويلية»^(٣)، إذ «لا يوجد وقائع، وإنما تأويلات»^(٤)...

- (١) أبو نصر الفارابي، رسالة في العقل (ص ٢٠)، وينظر: د. جعفر آل ياسين، الفارابي في حدوده ورسومه، عالم الكتب، ط ١، ت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م (ص ٦٥٣).
- (٢) براين فاي، الفلسفة المعاصرة للعلم الاجتماعي، أكسفورد: بلاكويل، ط ١، ت ١٩٩٦م (ص ٧٣)، نقلاً عن: جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف / الدار العربية للعلوم - ناشرون / المركز الثقافي العربي، الجزائر / لبنان - بيروت، المغرب - الدار البيضاء، ط ١، ت ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م (ص ٤١).
- (٣) نقلاً عن محمد علي الزين، تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب / بيروت - لبنان، ط ١، ت ٢٠٠٢م (ص ١٨).
- (٤) المقولة لنيتشة، نقلاً عن: محمد علي الزين، تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربي المعاصر (ص ١٨).

لذلك قيل: إن ترميز^(١) الشيء مبنيٌّ على: موت الشيء ذاته، وعلى نقصانه. فالوعي عند الإنسان ليس شيئاً معلقاً في الهواء! بل يرتبط بما سماه لاكان: «وسيطاً بينه وبين العالم الخارجي»^(٢).

(١) تحويل الشيء في الواقع إلى رمز. والرمز: علامة يُتفق عليها؛ للدلالة على شيء أو فكرة ما، ويقابل الوجود الواقعي. والرمز يمتلك مركباً من المعاني المترابطة، وهذا يُنظر إلى الرمز باعتباره يمتلك قيماً تختلف عن قيم أي شيء يرمز إليه كائناً ما كان. ينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي (ص ٩٢) مصطلح (رمز) برقم (٤٩٧)، وإبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس - صفاقس، ط ١، ت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م (ص ١٧١)، مصطلح (رمز).

(٢) نقلا عن د. عمر مهيبيل، من النسق إلى الذات، الدار العربية للعلوم - ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان - بيروت / الجزائر، ط ١، ت ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، (ص ٣٩، ٤٦).

اللغة تعترف بالجنون

• تعترف الثقافة العربية (عبر مؤسسة اللغة) بالجنون وجوداً
يحتل أو يشغل حيزاً من الإدراك. إذ إن منح الشيء اسماً (= الجنون)
وتسمية المصاب به (= مجنوناً) هو إدراك له، واعتراف بهوية مستقلة،
تستدعي الإعلان عن وجوده بالتسمية، غير أن تسمية الشيء هي في
الحقيقة ترميز له، كما أسلفنا!

إذا ما تتبعنا هذا الوضع اللغوي لنستمد منه استقبال اللغة
للجنون وللمصاب به؛ فإننا نقف على حقل^(١) لغوي واسع جداً،

(١) الحقل: حيزٌ ما يسري فيه منطق متناسق للأشياء. والدراسة تقصد به الحقل
الدلالي أو المعجمي، وهو يُعنى بالكلمات التي تدل على قطاع واحد من الاهتمام،
وقد عرفه د. أحمد مختار عمر؛ بأنه: «مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها، وتوضع
عادة تحت لفظ عام يجمعها»، علم الدلالة، عالم الكتب، لبنان - بيروت، ط ٤،
ت ١٩٩٣ م (ص ٧٩).

وينظر: د. عبد الغني عماد، سوسولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات
من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان،
ط ١، ٢٠٠٦ م (ص ٩٩)، ود. خليل أحمد خليل، مفاتيح العلوم الإنسانية،
دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط ١، ت ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م،
(ص ١٧١ - ١٧٢).

وغني جداً بمختلف الدوال، وصلت بحسب إحصاء بعض المهتمين إلى نحو من ثمانين اسماً^(١)، تحيل إلى صور متباينة من الاضطراب والخلل والشذوذ، يمثلها مصطلح «الجنون» بوصفه «علماً» يجمع صوراً مختلفة ومضطربة، متصلة ومنفصلة؛ لطائفة من الظواهر التي يصاب الإنسان والحيوان بها على حدّ سواء^(٢). وفي تعدد المفردات/ الأسماء دلالة أيضاً على الثراء المعرفي - الاجتماعي على صعيدي:

- المراقبة لمظاهر الاضطراب والانحراف عن السمت العام المؤلف.

- القدرة على الكشف عن التباينات الدقيقة داخل الحقل الدلالي الواحد، وتوزيع هذا الوعي على أسماء، ينال كل منها وصفاً بحسب تصوّر الواضع/ المستخدم اللغوي = الثقافي.

• تلك الألفاظ المستعملة في هذا الحقل، والتي يُنظر إليها - في بعض الأحيان - بصفتها مترادفات تنوب في الدلالة على شيء واحد، وإن كان - بحسب ما يعتقد الباحث - لا مجال للقول بالتناوب^(٣) إلا

(١) ينظر: د. أحمد خصوصي، الحمق والجنون من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م (ص ٤٢-٥٥)، وقال: «وقع إحصاء الألفاظ الحاملة لمعاني الجنون في لسان العرب، فكان العدد قريباً من ثمانين لفظة. على أن هذا العدد لم يدرك أوفى حدود الضبط» (ص ٤٢)، الحاشية رقم (١).

(٢) ينظر: الكتاب (ص ١٦٦-١٦٨).

(٣) القول بعدم وجود الترادف في اللغة العربية مذهب قديم، ومن أبرز القائلين به: أبو علي الفارسي، وثعلب، وأحمد بن فارس. وقصة الفارسي مع ابن خالويه =

مع الترخص! أو مع الاستعارة اللفظية^(١)؛ إذ إن تأملها والتدقيق في

= في مجلس سيف الدولة - بهذا الشأن - مشهورة، ينظر: د. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، ط ١٦، ت ٢٠٠٤ م (ص ٢٩٥-٣٠١).

قال الجاحظ: «يقال: فلان أحق، فإذا قالوا: ماتق، فليس يريدون ذلك المعنى بعينه. وكذلك إذا قالوا: أنوك، وكذلك إذا قالوا: رقيع، ويقولون: فلان سليم الصدر، ثم يقولون: عبي، ثم يقولون: أبله، وكذلك إذا قالوا: معتوه ومسلوس وأشبه ذلك. قال أبو عبيدة: يقال: للفارس شجاع، فإذا تقدم في ذلك قيل: بطل، فإذا تقدم شيئاً قيل: مُهْمَةٌ، فإذا صار إلى الغاية قيل: أَلَيْسَ». البيان والتبيين (١/٢٥٠).

وقال هنريكوس اليسوعي: «إنَّ الترادف (التام) مما يستحيل كيانه، ويمتنع في الوضع إتيانه، إذ يترتب عليه أن تكون اللغة الواحدة لغتين، ويصير اللسان الفرد لسانين، والعربية داخلة في السُّنة التي ذكرناها، غير خارجة عن الطريقة التي أوردناها، وإنما هي بحر طافح بالألفاظ المتقاربة المعنى، زاخر بالكلم المتشاكلة في المدلول والمغزى؛ حتى يختلط على الكاتب أن يفرق بينها». فرائد اللغة: الجزء الأول في الفروق، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، لبنان - بيروت، ١٨٨٩ م، مقدمة المؤلف (ص ٥).

(١) أقصد بالاستعارة اللفظية: الاستعارة التي وصفها الإمام عبد القاهر الجرجاني بـ(الاستعارة غير المفيدة)؛ لأنها قصيرة الباع، قليلة الاتساع، حيث تكون بنقل الاسم عما وضع عليه اختصاصاً: «وموضع هذا الذي لا يفيد نقله، حيث يكون اختصاص الاسم بما وُضع له من طريق أريد به التوسُّع في أوضاع اللغة، والتنوُّق في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان، نحو وضع «الشفة» للإنسان و«المشفر» للبعير و«الجحفة» للفرس، وما شاكل ذلك من فروق؛ ربما وُجدت في غير لغة العرب وربما لم توجد، فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها في غير الجنس الذي وُضع له، فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجزأ به موضعه، كقول العجاج: «وفاحماً، ومرسناً مسرَّجاً» يعني: أنفاً يبرق كالسراج، =

كل دال يقود إلى الوقوف على رغبة في تلمس وصف يختلف شيئاً قليلاً أو كثيراً عن الألفاظ الأخرى؛ ومع هذا فهي جميعاً تشترك في دلالتها على الانفصال عن السمات الاجتماعية المألوف، حتى في الألفاظ الدالة على الجنون التي يوصف بها الحيوان، فإنه ينظر فيها إلى سلوكه المخالف لجماعته^(١).

ولذلك يتشرب الاسم - بدرجات متفاوتة - معنى: العزل والنبذ، لأن الوعي اللغوي يتشكل ضمن «نظام اجتماعي». والظاهرة الاجتماعية تمتاز - كما يقرر علماء الاجتماع - «بأنها عامة ومنتشرة... وهي تظهر في صورة واحدة إلى حد ما، وتكرر فترة طويلة من الزمن»^(٢). ونتيجة لذلك تأخذ «صفة الجبر والإلزام، أي أنها تفرض نفسها على الأفراد؛ ولا يسع هؤلاء أن يخالفوها، ومن يحاول أن يخرج عما يرسمه المجتمع من حدود وأوضاع، يقابل في هذا الصدد بمقاومة وعنف»^(٣).

= والمرسُن في الأصل للحيوان، لأنه الموضع الذي يقع عليه الرسن...». الإمام عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، السعودية - جدة، ط ١، ت ١٤١٢هـ - ١٩٩١م (ص ٣٠).

(١) مثل: «الثول» جنون الشاء، و«الهيام» و«السعر» جنون الإبل والنوق، و«الكلب» جنون الكلاب، وسوف تقف الدراسة عليها بعد قليل.

(٢) د. مصطفى خشاب، علم الاجتماع ومدارسه: الكتاب الثاني: المدخل لعلم الاجتماع، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٦٧م، (٢/٩).

(٣) د. مصطفى خشاب، علم الاجتماع ومدارسه: الكتاب الثاني: المدخل لعلم الاجتماع (٢/٩-١٠).

هذا الوعي المتأثر بالقوة الاجتماعية يسقطه الإنسان على ما يدخل ضمن مداركه؛ مثل ما حوله من الموجودات في علاقاتها بأمثالها؛ سواء أكانت تلك الكائنات إنساناً أو حيواناً أو حتى جماداً^(١). إذ «تنطوي كل أفكار الصحة والمرض - سواء في ذلك المحدود منها أو الأكثر عمومية - على مفهوم السلوك السوي والملاءمة المعيارية»^(٢). ولذلك نجد الأسماء التي تقع ضمن حقل الجنون تطلق على الإنسان، وعلى الحيوان والنبات، وعلى الجماد (ما لا حياة فيه)!

(١) قال الجاحظ: «أما الجنون وذهاب العقل فإنه يصيب كل شيء، فمن ذلك ما يصيب الدواب، فإن منها ما يُصرع كما يُصرع المجنون، والسائس من الدواب: الذّاهب العقل!». كتاب الحيوان (٢/٢٢٣). وقد راقب العرب سلوك الحيوان؛ فما كان فيه اضطراب وانحراف عن السلوك المعتاد من جنسه، فهو مجنون، ومن ذلك ما لاحظته شهاب الدين النويري، من أن بعض الهررة إذا ولدت أكلت أولادها، وذلك - بحسب تعليقه - «من جنون يعرض لها عند الولادة أو جوع». (نهاية الأرب في فنون الأدب (٩/١٧٣). وعلق أحمد بن فارس على قول الشاعر:

مثل النّعامه كانت وهي سالمةً أذنأءَ حتّى زهاها الحينُ والجنُّنُ

فقال: «أراد الجنون».

معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م (١/٧٦)، مادة (أ.ذ.ن).

(٢) الرأي لديفيد ميكانيك، في كتابه علم الاجتماع الطبي:

Medical Sociology, 2ed Edition, The Free Press, 1968 PP.25-26

نقلًا عن: د. محمد علي محمد ود. علي عبد الرزاق ود. سناء الخولي ود. سامية محمد جابر، دراسات في علم الاجتماع الطبي، دار المعرفة الجامعية، مصر - الإسكندرية، ط ١، ت ٢٠٠٨م (ص ١٥٠).

بالنظر إلى العلاقة بين أفرادها مع المجموع^(١)..

• واللغة تقسم هذا الحقل الواسع، إلى مسردين عامين متجاورين، يقوم على كل مسرد منهما اسم كالعلم الجامع لما تحته من ألفاظ، وهذان الاسمان هما «الجنون» و«الحمق». حيث تفرق اللغة داخل هذا الحقل بين مظهرين للاختلاف؛ أحدهما: الاختلاف

(١) يمكن أن نسوق بعض نماذج لذلك؛ فمثلاً: العرب تقول: شاة ثولاء، أي: مجنونة، والثول: جنون يصيب الشاة فلا تتبع الغنم، وتستدير في مرتعها. وتوصف الإبل بالهيام: وهو جنون يصيبها فيدع البعير أو الجمل المصاب سائر الإبل ويذهب على وجهه ولا يرعى. والرمل الهيام: الرمل الدقاق اليابس، الذي لا يستمسك ببعضه. ويقولون: بعير مذبوب: أي: أصابه الذباب، وهو جنون يصيب الإبل خاصة، يجعله لا يقرّ في مكان واحد. ويقولون: جنّ النبات إذا النف وطال وخرج زهره، ونخلة مجنونة إذا فاقت غيرها وكانت في غاية الطول، وجنت الأرض إذا كانت ممرعة معشبة لم يرعها أحد كغيرها، وأرضٌ مُتَجَنِّنةٌ: كثر عشبها حتى ذهب كل مذهب. كما يقولون: نجاء أهوج، وغبار مجنون، وزمام سفية (ينظر: محمد بن دريد، الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجليل، لبنان - بيروت، ط ١، ١٤١١هـ-١٩٩١م (١/٤٢٥)، وإسماعيل الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٤/١٦٤٩)، ومحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، ط ١، ت ٢٠٠١م (٦/٢٤٧)، وعلي بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم (٧/٢١٧)، ومجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط (١/٥٤٤)، ومحمد ابن منظور، لسان العرب (١٢/٦٢٦-٦٢٧) و(١٣/٩٢-١٠١)، ومرئى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (٣٤/١٢٩)، و(٢/٤٢٣-٤٢٤)، المواد التالية: (ج.ن.ن)، و(ذ.ب.ب)، و(ه.ي.م)، وأحمد بن علي المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، علقت عليه: تغريد الشيخ، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م (٢/٥١٢).

داخل النظام (الكساد/ الجهل - الحمق)، والآخر الاختلاف خارج النظام (الاستتار/ المغايرة/ الانقطاع - الجنون).

ومن خلال: هذا التقسيم إلى مسردين مستقلين، وبواسطة تلك الأسماء: صيغاً ودلالةً، تسرب مؤسسة اللغة، إلى المستخدمين: معنى بل وعبارة له أثره البالغ في التعامل مع ظاهرتي «الجنون» و«الحمق»، اللتين تتجاوران تحت حقل واحد، ولكنهما تتفارقان لتعطيا المستخدم الانطباع بالاختلاف والتباين؛ منذ لحظة الوعي باللغة (الاتصال بالنظام الثقافي - الاجتماعي). ومن ثم تجعل هذا الاستعمال قالباً إدراكياً للفهم وموجهاً للنظر؛ فالأسماء غير محايدة! لأنها - كما يصفها بيير بورديو: «ملغومةٌ بنعوتٍ ضمنيةٍ، والأفعال تنطوي على أوصافٍ صامتةٍ تميل إلى التأييد والاستنكار، وإلى إقرار الوجود والدوام، أو إلى الخلع والطعن ونزع الاعتبار»^(١)...

(١) الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط ٣، ٢٠٠٧ م، (ص ١٢-١٣).

اللغة تصنف الجنون

• تعطي اللغة مستعملها انطباعاً: أن عالم الجنون عالمٌ خفيٌّ ومغاير، يظهر ذلك من مركزية لفظة (جنون - مجنون) فيه، وهي ذات دلالة على الستر والتغطية والاحتجاب. إن الاشتقاق من المادة نفسها (ج ن ن) تقتضي الخفاء، ومن ثمَّ الانفصال والاختلاف؛ لأنها ضد الظاهر والمستأنس المألوف! واللغة تنبه مستخدميها إلى تلك المفارقة المهمة! لذلك تستعمل اللغة هذه المادة في الدلالة على ما هو منفصل بائن؛ يقال: جُنَّةٌ، لما يستتر به^(١)، ومنه قوله ﷺ: «الصوم جُنَّةٌ»^(٢)، والمِجَنُّ: الترس يتقى به في الحرب^(٣)، فكأنه يفصل بين الإنسان وبين ما يكره. ويقال: الأجنان أي: القبور، والمفرد منه: جَنَنٌ، والمجنون: المقبور^(٤)، ومنه قول الأعرابية: «الله دركٌ من مجنون

(١) إسماعيل الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (٥/٢٠٩٤)، مادة (ج.ن.ن).

(٢) أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، ط١، ت١٧٤١هـ - ١٩٩٧م (١٣/٤٢٢) (٤٤٥/١٥)، برقم (٨٠٥٩، ٩٧١٤).

(٣) محمد بن منظور، لسان العرب (١٣) (ص ٩٣-٩٤)، مادة (ج.ن.ن).

(٤) الخليل بن أحمد، معجم العين (بترتيب: أسعد الطيب) (١/٣٢٤)، ومحمد الأزهرى، تهذيب اللغة (١٠/٢٦٨)، مادة (ج.ن.ن).

في جَنَن»^(١). والمقابر عالم آخر غير العالم الذي يأوي إليه الأحياء ولو اندرج فيه أو اتصل به، كما أن المقبور ناء عن منازل الأحياء ولو كان أقرب ما يكون جدثاً منهم.

- وفي المقابل فإن المسرد الآخر الموازي لمسرد الجنون، تكون فيه لفظة الحمق لفظة مركزية، نجدها لا تشير للخفاء والغرابة والانقطاع، بقدر ما تشير لمسألة البوار والكساد. فعقل الأحمق موجود ولكنه بائر وكاسد، لا يجدر واجاً عند صاحبه، ولا يروج لديه به أسباب ظفر أو سلامة، مثل ما تقول العرب للسوق إذا كسدت: «حمقت السوق»^(٢)، فإنّ هذا الوصف نفي لجودة الربح ولرواج البيع فيها؛ وليس نفيًا لوجود السوق ولا لجودة البضاعة.
- وقد عبر أبو حامد الغزالي عن هذه المفارقة الدقيقة بين الجنون والحمق؛ فقال:

«أما الحمق فهو: فساد أول الرؤية فيما يؤدي إلى الغاية المطلوبة، حتى ينهج غير السبيل الموصل...»

أما الجنون فهو: فساد التخيل في انتقاء ما ينبغي أن يؤثر حتى يتّجه إلى إيثار غير المؤثر. فالفاسد من الجنون غرضه، ومن الأحمق سلوكه؛ إذ غرض الأحمق كغرض العاقل ولا يعرف في

(١) عبد الحميد بن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، لبنان - بيروت، ط ٢، ت ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م (٧/ ٢٣٣).

(٢) إسماعيل الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (٤/ ١٤٦٥)، وعلي ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم (٣/ ٢٥)، مادة (ح.م.ق).

أول الأمر إلا بالسلوك إلى تحصيل الغرض. والجنون هو فساد الغرض؛ ولذلك يُعرف في أول الأمر...»^(١).

ف«الأحمق مقصوده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد؛ فلا تكون له رويّة صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض. أما المجنون فإنه يُختار ما لا ينبغي أن يُختار؛ فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسداً»^(٢).

• ومعنى ذلك كما يشرحه ابن الجوزي:

«أنّ الحمق والتغفيل هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب، مع صحة المقصود. بخلاف الجنون فإنه عبارة عن خلل في الوسيلة والمقصود جميعاً. فمن ذلك: أن طائراً طار من أمير، فأمر أن يغلق باب المدينة! فمقصود هذا الرجل حفظ الطائر»^(٣).

إن الأحمق لم يكن في بينونة عن نظام العقل، ولكنه عجز عن العمل بمنهجه الواضح؛ فهو رهن خطأ بالغ قاد إليه جهله وكساد عقله عنده؛ فهو يحتاج إلى موجّه يوجهه، ومرشد يذكّره بالوسائل المناسبة للوصول إلى مقصده الصحيح؛ ولذلك وصف الحمق

(١) أبو حامد الغزالي، ميزان العمل، تحقيق: د. سليمان دنيا، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط ١، ت ١٩٦٤م (ص ٢٧٥-٢٧٦).

(٢) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، لبنان - بيروت، ط ٢، ت ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م (٣/٥٤).

(٣) أخبار الحمقى والمغفلين، شرح: عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبنانية، ط ١، ت ١٤١٠هـ-١٩٩٠م (ص ٢٣).

بـ«الجهل» في الأدبيات العربية^(١)؛ فالحمق إذن «وجود داخل النظام».

وهذا بخلاف «الجنون» الذي هو وجودٌ «خارج النظام»، لأنه - كما أسلفنا - محبوب عنه ومنبت. ومن ثمَّ كان من أسماء الجنون «معنون»^(٢)، ويستخدم كثيراً كالإتباع^(٣) له، فيقال: «مجنون معنون»، والمعنون: كلُّ محبوس^(٤)، فهو: محبوس وممنوع من الاتصال والتفاعل مع من وما حوله، ومن الجذر نفسه العنين وهو: العاجز عن الاتصال الجنسي^(٥)، فكأنَّ اللغة تؤكد على صفة الانقطاع في المجنون.

(١) قال يوسف بن عبد البر القرطبي: «كانوا يعيرون عن الأحمق بالجاهل، ومن ثم قالوا: غضب كسرى على عاقل فسجنه مع جاهل. يريدون سجنه مع أحمق». ينظر: بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذهن والهاجس (٢/ ٥٤٥).

(٢) محيي الدين بن شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، د. ط، د. ت. (٣/ ٥٦)، قال أبو عمر بن العلاء: «يقال للمجنون معنون...».

(٣) الإتباع: «أن تتبع الكلمة الكلمة على وزنها أو رويها إشباعاً وتوكيداً»، أحمد بن فارس، الإتباع والمزاوجة، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي / مكتبة المثني، مصر - القاهرة/ العراق - بغداد، ط ١، ت ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م (ص ٨٨).

(٤) الصاحب إسماعيل بن عباد، المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف، العراق - بغداد، ط ١، ت ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م (١/ ٨٣)، قال: «وكل معنون محبوس، وهو عين عن القتال وغيره أيضاً».

(٥) محمد الجباني، إكمال الإعلام بتلخيص الكلام، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي، جامعة أم القرى، السعودية - مكة، ط ١، ت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م (٢/ ٤٥٤)، وابن منظور، لسان العرب (١٣/ ٢٩١)، مادة (ع.ن.ن).

ولذلك يقال للرجل إذا برئ من حماقة «أقبل»^(١)، كأننا كان مستدبراً الوجهة الصحيحة.

أما المجنون إذا عقل فيقال له: «أفرق» المجنون، ويقال: ثاب إليه عقله، وراجع عقله^(٢)، كأن المجنون كان في عدوة قصية وفرق إلى أخرى، أو في سبيل وانتقل إلى غيره، أو أن عقله كان عاجزاً عنه أو غائباً ثم رجع إليه.

• ومن دأب العرب قديماً وحديثاً تعزيم المجنون ببعض ما يحترمون ويجلُّون، وما يُعزَّمُ به يحتل - بالضرورة - مكانة عظيمة في الثقافة المعتمدة لأنه ينتج قيمها أو يرسخها؛ ومن ثمَّ فهو العلاج الأنجع للجنون؛ لأنه يردّه إلى حياض ما يعتقدون من مُثُلٍ، أو يجلون من رموز.

ومن ثمَّ فهو الأقدر على أن يُرجعه أو يُقبل به إلى الجادة والصواب/ عالم العقل من جديد، وذلك إشارة إلى ما استقرَّ في ذهنيهم من كون الجنون خروجاً من العالم (المأنوس = الإنس) إلى عالم (غريب عجيب خفي = الجن)، وأنه تمرّد على العقل لا يعترف بقيمه ولا أسبابه ولا مقاصده، بل هو عالم خاص بأسبابه ومقاصده وأوهامه..

(١) ينظر: إبراهيم اليازجي، نجعة الرائد وشرعة الوارد، مطبعة المعارف، مصر - القاهرة، ط ١، ت ١٩٠٤م (١/١١٣).

(٢) ينظر: إبراهيم اليازجي، نجعة الرائد وشرعة الوارد (١/١١٣).

ولذلك قرأنا في كتب التراث: «لَوْ قُرِيَ هَذَا الْإِسْنَادُ عَلَى مَجْنُونٍ لَبَرَأَ»^(١)، و«إسناد لو قرئ على مجنون لبرئ»^(٢)، و«هذا [الإسناد] سعوط السبلي، الذي إذا سعط به المجنون برئ»^(٣).

وروى أبو الفرج الأصفهاني عن إبراهيم بن سعد أنه قال: «إني لأروي لكثير ثلاثين قصيدة لورقي بها مجنون لأفاق»^(٤). وقد وُصف كثير «بأنه أشعر أهل الإسلام»^(٥)، وقيل عنه: «لم يدرك أحدٌ في مدح الملوك ما أدرك كثير»^(٦)، و«ما قصّد القصيد، ولا نعت الملوك مثل كثير»^(٦). وما دام شعره بهذه المنزلة، فهو جديرٌ لمؤسسيته ولنسقيته بأن يعيد المجانين إلى حياض العقل (= المنهج / النسق) الثقافي.

وهم بذلك يشيرون إلى «المقدم» و«المحترم» بصفته قادراً بفضل قيمته وما يحمله من برهان الحقيقة على فرض سلطته ونظامه على المجنون عندما يجتمعان. وهذا ظاهر من لفظة «العزائم» حين يطلقونها

(١) محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، (٢٥/١)، برقم (٦٥).

(٢) يوسف قزغلي (سبط ابن الجوزي)، تذكرة الخواص (تذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة)، تحقيق: د. عامر النجار، مكتبة الثقافة الدينية، مصر - القاهرة، ط١، ت١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م (ص٦٤٩).

(٣) خليل بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات (٢٥٢/١٩)، ترجمة: ابن طاهر الخزاعي، برقم (٧٤٨٣).

(٤) الأغاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، ط١، ت١٤٠٧هـ-١٩٨٩م (٧/٩-٨).

(٥) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني (٩) (ص٧-٩).

على «الرُّقى التي يعزم بها على الجن والأرواح»^(١)، فالعزيمة فيها معنى الصرامة والجلد، و«عزم» عليه بكذا إذا حمّله عليه أو أقسم أن يفعله^(٢).

• أما الأحمق فلم يكونوا يعزمون عليه بشيء لأنه لم ينأ عن عالم العقل؛ حتى يروموا إرجاعه إليه، بل هو «داخل نظام العقل»، فلا يحتاج إلى عزيمة بما يُعظّمون، ولكنه يحتاج إلى غير ذلك؛ يحتاج إلى أن يحسن تقدير ما لديه من نعمة العقل، ويتتبع نظم العلاقات، ويتعلم كيف يسبب الأسباب، ويفترض النتائج لمقدماته التي أسلفها وفق ما يجري عليه المنطق والنظام، فمقاصد الأحمق وأهدافه على الإجمال صحيحة لا يشوبها ما يشوب مقاصد الجنون، ولكن الأحمق برغم انتمائه إلى نظام العقل، وبرغم معاشرته الطويلة لأهله، وبرغم انصوائه الطويل تحت مظلته، كاسد العقل بليد الطبع ما يزال يضل في اختيار الوسائل المناسبة للوصول إلى مقاصده؛ فهو مثلاً يريد أن يغنم فيغرم، أو يصلح فيفسد، أو يفقد الشيء فيطلبه بأكثر مما يستحق من ثمن، فهو كـ«البقلة الحمقاء»، لأنها كما يقال: تنبت في مجاري السيل^(٣)، فكأنها تريد الحياة السهلة والنضرة فتنبت في مجاري الماء فيقتلعها، ويكون حنقها حيث أملت البقاء والنماء. وكلّ ما تقدم من حيث الغاية والمقصد شريف ومحترم؛ فالغنم والإصلاح والحياة النضرة اللينة لا ينكرها العقل،

(١) محمد الأزهرى، تهذيب اللغة (٢/ ٩١). مادة (ع.ز.م).

(٢) ينظر: إسماعيل الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٩٨٥)، مادة (ع.ز.م).

(٣) ينظر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة (٢/ ٤٩٢)، مادة (ح.م.ق).

ولكنها بالنظر إلى الوسائل التي استخدمت حمق وضلالة، لأنها لا توصل إلى المراد؛ وإن أوصلت للمراد فمع رزية تفوت حللوة الظفر، وما يُرتجى من النفع. ولذلك عاب العرب الحمق وعظموه بما لم يعظم الجنون - على حدّ تعبير المناوي^(١)، وتواترت مروياتهم على وصفه بأنه الداء الدوي، الذي لا دواء له، حتى سرى مسرى القانون الثقافي أن:

لكلّ داء دواء يستطبُّ به

إلا الحماقة أعييت من يداويها^(٢)

وتداولوا في مروياتهم أن نبيّ الله عيسى عليه السلام اعتذر عن مداواة الحمقى، في حين أنه كان يبرئ من الجنون بإذن الله^(٣). ومن ثمّ كان الوصف بالحمق في الثقافة العربية أكبر وأشنع من الوصف بالجنون! لما فيها من معنى النبز والعجز خلاف الوصف بالجنون فإن ما استقر في النفس هو معنى الاختلاف والانقطاع. ويمكن لنا هنا أن نستعيد المروية المهمة التالية:

«قال معلّم موسى الهادي له؛ في معرض التقرير له: يا أحمق!

فهشم أنفه، فسأله أبوه المهدي عن السبب؛ فقال: قال لي: يا

أحمق! ولو قال لي: يا مجنون لاحتلمته»^(٤).

(١) ينظر: محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير (١/٥٣١).

(٢) أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد (٢/٢٢٦)، وجار الله الزخشي، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار (٢/٣٩).

(٣) ينظر: محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير (١/٥٣١).

(٤) محمد الوطواط، غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، تصحيح: محمد الصباغ، مطبعة بولاق، مصر - القاهرة، ط١، ت١٢٨٤هـ (ص١١٦)، =

• تستعمل اللغة في الدلالة على الجنون على مستوى الفعل صيغةً المبني للمجهول، أو «ما لم يسمّ فاعله» بحسب مصطلح متقدمي النحاة^(١)، وتستخدم صيغة «المفعول» للدلالة على من اتصف به (جُنَّ - مجنون)، يقولون: جُنَّ فهو مجنون، وإذا قالوا: جُنَّ فمعنى قولهم: جُعِلَ فيه الجنون، وإذا قيل: مجنون، أي: مفعول به الجنون، كما يقال: سُلَّ فهو مسلول، وزَكِمَ فهو مزكوم، وحَمَّ فهو محموم، وشَوُّومَ فهو مشوُّوم، ويَمَنَّ فهو ميمون، قال أبو حيان التوحيدي:

«يقال: يَمَنَّ فلانٌ عليهم وشوُّومَ، وهو: ميمونٌ ومشوُّومٌ؛ جعل الفعل على طريق ما لم يسم فاعله، لأنه شيءٌ موصولٌ به من غير

= وانظر: تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م (ص ١٥٤).

(١) مصطلح «ما لم يسم فاعله» مثل غيره من المصطلحات النحوية الأولى، تصدر عن إحاطة بعلوم العربية في صورتها الشاملة؛ مما يجعلها ذات خصوصية في الحقول البلاغية والدلالية والاجتماعية... إلخ أكثر من الصيغ الصناعية المتأخرة؛ فمصطلح (ما لم يسم فاعله) يوفر فرصة أكبر للتأويل في حقول معرفية عديدة؛ بالنظر إلى مصطلح (نائب الفاعل) الذي ارتبط بالدرس النحوي وصناعة الإعراب.

ينظر مثلاً: الخليل بن أحمد، الجمل في النحو، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م (ص ١١٨)، المبرد، المقتضب، تحقيق: د. محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، لبنان - بيروت، د. ط. ت.، (١/٩٣، ٩٥، ١٠٥، ١٧٣)، وابن جنبي، سر صناعة الإعراب، تحقيق: د. حسن هندراوي، دار القلم، سوريا - دمشق، ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م (١/٢٨٩)، والخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م (٢/٢١٩).

إرادته واختياره. وإنما نزعوا إلى قولهم: فلان مشؤوم ليكون الفعل واقعاً به - أعني المكروه - وإلا فهو شائمٌ في الأصل»^(١).

لهذا أيضاً حكم جمهور النحاة واللغويين بشذوذ صيغة التعجب من الفعل (جُنَّ) ومن اسم المفعول (مجنون) على (ما أجنَّه)؛ لأنَّ التعجب إنما يكونُ ممن له قدرةُ الفعل، أو بلغة النحاة من صيغة «فعل الفاعل» وليس من صيغة «فعل المفعول»^(٢).

هاتان الصيغتان اللغويتان المتواطئتان على تقديم الجنون في علاقته الإسنادية من خلال موقع الفعل المبني للمجهول (الذي لم يُسمِّ فاعله)، وتسمية المتصف به من خلال صيغة اسم المفعول (الذي وقع عليه الفعل)؛ توجه المستخدم/ المتلقي لها إلى أن «الجنون» يأتي من غير اكتساب حقيقي، وأن «المجنون» مكرهٌ على ما هو فيه، وأنه بمنزلة المحبوس في ظلام الجنون...

• تمتع اللغة من أن يأتي من الجذر (ج.ن.ن) الدال على وصف/ علة الجنون^(٣) صيغة صرفية للفعل المعلوم (الذي سَمِيَ فاعله)، إلا

(١) الإمتاع والمؤانسة (١/ ٣٢٢).

(٢) ينظر: علي بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم (٦/ ٧٨٧) و(٧/ ٢١٥)، أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م (١/ ٦٤٤)، وبطرس البستاني: قطر المحيط، مكتبة إبراهيم صادر، لبنان - بيروت، ط ١، ١٨٦٩ م (١/ ٣١٩).

(٣) ورد من الجذر (ج.ن.ن) صيغة صرفية للمعلوم لغير الدلالة على علة الجنون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] بمعنى: أظلم عليه عليه الليل.

إذا دلت على أن الجنون «مدعى من موقع العقل»، مثل صيغتي: (تفعل = تجنن)، و(تفاعل = تجانن - تجان)، وهاتان صيغتان تدلان على تكلف الجنون من غير حقيقة، مثل: تعالم، وتفانن، وتفنن، وتناعس، وتناوم، وتكاسل، وتناول، أي: فعل بنفسه ذلك على غير حقيقة^(١). فهذه الصيغة تثبت لصاحبها إرادة الجنون وطلبه؛ لأنه يفعل ذلك من موقع الإرادة/ القصد = العقل! وإن وقع موقع الجنون؛ فإنه موقع مدعى ادعاءً، وأنداك تمنحه اللغة الحق في أن يستخدم صيغة الفعل المعلوم (ما سمي فاعله).

• يكثر في الاستخدام اللغوي الإسناد إلى الجنون بفعل «نَسَبَ - رُمِيَ - اهتم - وصف»^(٢)، وذلك يعني ارتباط الجنون بالآخر الذي له

(١) تجان: الرجل إذا تكلف الجنون وليس بمجنون. ينظر: الحسن بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين (ص ٤٢-٤٣)، ومرضى الزبيدي، تاج العروس (٣٦٩/٣٤)، مادة (ج.ن.ن).

(٢) يمكن تتبع ذلك في عدد من الأساليب، ينظر مثلاً: نسب إلى: «أول من نسب إلى الجنون في الإسلام...»، «اشترط المتنبى على سيف الدولة أول اتصاله به: أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلا وهو قاعد؛ وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه، فنسب إلى الجنون...»، «... حتى يُنسب صاحبه إلى الجنون»، «لم يحتج فرعون عليه بأكثر من أن نسبه إلى الجنون!»، «حتى كان يُنسب إلى الجنون مرة وإلى الكفر مرة...»، «ينسبهم العامة إلى الجنون». وصف بد: «وإنما وصفوه بالجنون»، «فوصف بالجنون».

رمي بد: «كان فينا جماعة رموا بالجنون»، «ورميه إياه بالمجنون»، «كان يرمى بالجنون»، «رماه بالجنون»، «وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب وخطأ»، «فرمواها عنده بالجنون»، «حدثنا الأصمعي قال: سألت أعرابياً... فقال: عن أيهم تسألني؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون...»، «كان [السيرافي] يرمى بالجنون» =

الحق في التصنيف، وأن ظهور الجنون/ المجنون مشروط من خلال

= اتهم بد: «صَرَّحُوا لَهُ بِالْكَذِبِ وَاتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ».

راجع النصوص على الترتيب: أبو القاسم النيسابوري، عقلاء المجانين (ص ٩٤)، الخبر برقم (١٦٢)، ويوسف البديعي الدمشقي، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، تحقيق: مصطفى السقا ومحمد شتا وعبد زيادة، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط ٣، ١٩٩٤م (ص ٧١)، ومحمد بن جعفر الخرائطي، اعتلال القلوب (٢/ ٣١٨)، وأبو جعفر النحاس، معاني القرآن الكريم، تحقيق: محمد علي الصابوني، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ومركز إحياء التراث الإسلامي، السعودية - مكة المكرمة، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م (٥/ ٧٣)، وسراج الدين بن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م (١١/ ٤٣٠)، وإسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية - الرياض، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م (٧/ ٤٦٧)، أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني (٢/ ٨)، وخليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م (٢١/ ٢٤٩)، ابن منظور، لسان العرب (١/ ٩٩ مادة (سوأ))، ومرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (١/ ٣٩ مادة (سوأ))، أبو الليث نصر السمرقندي، تفسير بحر العلوم، تحقيق: علي معوض وعادل عبد الموجود ود. زكريا النوتي، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م (٣/ ٦١٣)، ومنصور السمعاني، تفسير القرآن الكريم، تحقيق: ياسر إبراهيم وغنيم عباس، دار الوطن، السعودية - الرياض، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م (٢/ ٢٣٨)، ونظام الدين النيسابوري، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، تحقيق: زكريا عميران، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م (٥/ ٢٦٧)، و(٦/ ١٠٤)، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط (٨/ ٣٥)، (١٧٥).

وجود ذلك الآخر. فهناك مرجعية ذات سطوة يتوافر لها الحق في الدفع بالظواهر أو الأفراد إلى خارج النظام- إلى عالم الجنون.

إنّ الجنون -في وعي اللغة- إذاً غير قادر على إحداث فعل الهوية! وإنّما تحصل له هويته من موقع آخر هو: موقع العقل/ النظام، وقد نفهم ذلك أكثر لو عرفنا أن «الفعل» موقع ثقافي لا يمنح إلا وفق اشتراطات محددة؛ ومن ثمّ فإنه يمنح للعقلاء ويسلب من المجانين.

ولعلّ في هذا ما يكشف عن أن وجود الجنون بصفته وجوداً تالياً اقترن بالحاجة إليه لصالح الوجود المعياري - العقل^(١)، وينشأ أو يستغل من قبله؛ حتى وإنّ تكلف فردٌ (ما) الجنون فإن ادعاءه للجنون لا يكون إلا من خلال موقع العقل (موقع الإرادة: تجنّن - تجنّان)، فتحقق الوجود للجنون يأتي دائماً من خارجه، سواء أكان من خلال: النسبة إليه، أو من خلال ادعائه...

• ذكرت الدكتورة رجاء بن سلامة أنه قد «أوجد عقلاء المجانين مفعولاً لفعل «جُنَّ» يتعدّى إليه بحرف «عن»^(٢). لكنها لم تحاول الكشف عمّا وراء الاستخدام من الدلالة!

والأمانة العلمية تقتضي منا -هنا- تصحيح تلك الملحوظة التي

(١) الحاجة إلى الجنون قد تكون حاجة ضرورية؛ من حيث إن الجنون المقابل الذي يستوعب ما هو خارج العقل، فلا نظام دون إثبات ونفي.

(٢) العشق والكتابة: قراءة في الموروث، منشورات الجمل، ألمانيا - كولونيا، ط ١، ٢٠٠٣م، (ص ٥٢١)، وقد توقفت عند هذه الملاحظة دون أن تحاول الكشف عن دلالاتها وما وراءها.

ذكرتها الدكتورة رجاء فننه إلى أن التعدية بحرف «عن» مستعمل في اللغة من قبل. ومن ذلك ما رواه ابن الأعرابي عن العرب: «جن عين أي: ما جُنَّ عَنِ العَيْنِ فلم تره». ومنه قول قتادة: «قال قتادة: جنّ [الشيطان] عن طاعة ربه»، وقول سفيان بن عيينة: «لقد أدركنا الناس وهم إذا بلغ أحدهم الأربعين سنة جن عن معارفه، وصار كأنه مختلط العقل من شدة تأهبه للموت»^(١).

ويمكن القول: إنّ الفئة التي عرفت في التراث بـ«عقلاء المجانين» قد طورت استخداماً لغوياً جديداً (صيغة لغوية تجمع بين الإثبات والنفي)، لصرف الجنون عن شيء بحرف الجر «عن»، للدلالة على الانقطاع عن الشيء، والاحتجاب عنه، وتبته بالنفي (ما- لا) بعد ذلك. وهي صيغة: «جننتُ عن ... لا عن ...»، و«جننت عن ... وما جننت عن ...»، وما شابهها. وذلك لتوجيه الجنون الوجهة التي يريدها المجنون! في مقابل الصيغة الرسمية التي تنسب الفرد إلى الجنون لإلغائه ونفيه.

(١) ينظر: محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق وتخريج: محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ت ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م (١/٥٠٥)، برقم (٦٩٣)، وأحمد الثعلبي، الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، تحقيق: أبي محمد عاشور، مراجعة وتدقيق: أ. نظير الساعدي، دار أحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، ط ١، ت ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م (٦/١٧٦)، وعبد الوهاب الشعراي، الطبقات الكبرى (طبقات الشعراي)، المكتبة التوفيقية، مصر - القاهرة (ص ٩٧)، ترجمة رقم (٩٥)، ومحمد بن منظور، لسان العرب (١٣/٩٣)، مادة (ج.ن.ن).

وهذا يكشف عن محاولة تلك الطائفة المشكِّلة من المجانين في التراث انتزاع حقها؛ بتوجيه تجربتها في الجنون نحو التصنيف الذي تختاره هي، وذلك في مواجهة فعل «التصنيف الرسمي» الصادر من الآخر - النظام؛ ما يعني سعي هذه الفئة لامتلاك هويتها! وقدرتها على إنتاج الخطاب!

- «قال ذو النون: قلت: لغلبيم: لم سُميت مجنوناً؟! قال: أنا مجنونٌ عن معصيته، لا عن معرفته!»^(١).

- «قال رجل لعليان المجنون: أجننت؟ قال: أما عن الغفلة فنعم، وعن المعرفة فلا. قلتُ: كيف حالك مع المولى؟ قال: ما جفوته مذ عرفته، قال: قلتُ: ومذ كم عرفته؟ قال: مذ جعل اسمي في المجانين»^(٢).

فهوية «الجنون» هنا إذن تخضع لاشتراطات المجنون نفسه! وهي مختلفة عن هوية الجنون كما يقدمها الآخر - العاقل. وهذا ما يجعل الجنون يستحق عناية خاصة: تدرسه من حيث: تحقق شروط إنتاج الخطاب، وكيفية تداوله، وقدرته على امتلاك صوت خاص به. وهو ما نطمح لاستكمال الوقوف عليه في بحث قادم - إن شاء الله تعالى - يُعنى بما أسميناه في مقدمة الدراسة بـ «استعادة خطاب الجنون»^(٣).

(١) أبو القاسم النيسابوري، عقلاء المجانين (ص ٣٤٢)، برقم: ٥٩٩.

(٢) النيسابوري، عقلاء المجانين (ص ١٦٢)، برقم: ٢٩٠.

(٣) ينظر: مقدمة الكتاب (ص ٣٢ وما بعدها).

• وهنا يمكن أن نبدي ملحوظةً أخرى بإزاء ما تقدم ذكره؛ من كون: تحقق الوجود للجنون يأتي دائماً من خارجه: سواء أكان من خلال النسبة إليه، أو من خلال ادعائه. وهي: أن انتزاع التأكيد على الهوية لدى طائفة «عقلاء المجانين»، يأتي من الموقع الثاني للعقل؛ أي: من خلال: الجنون المدعى (تجانّ - تجنن)، فالمؤسسة اللغوية لا تعطينا خياراً ثالثاً.. ويمكن أن نستأنس هنا بما رواه النيسابوري في كتابه «عقلاء المجانين»:

كان أبان بن سيار الرّقِّي رئيس القراء والفقراء بالرقّة، وكان مع ذلك يرجع إلى علم؛ فأكل الذئبُ بُنيّاً له وكان واحده، وكان مشغوفاً به، فلم يتمالك، وهام على وجهه، فغاب ملياً ثم عاد وقد برم بالناس؛. فَجَنَنَ نَفْسَهُ، وجعل لا تطمئن به الدار ولا يستقر به القرار، فحُبرَّتْ بشأنه فأتيته في أصحاب لي، فألفيته في الجامع يكلم بعض الأساطين، فقلت: يا أبان، أجننت؟! قال: نعم، عندك وعند أضرابك. فقلت: وكيف؟! فأنشأ يقول:

جُنِنْتُ عن عقلي لديكم وما

قلبي والله بمجنون

أَجَنُّ مني وإله الورى

من اشترى دنياه بالدين»^(١)

فالثقافة إذن تستجيب للجنون من موقع لغوي غني، يوجّه

(١) (ص ٦٨)، برقم (٩٧).

المستخدم والمتلقي إلى: أن الجنون يأتي من غير اكتساب حقيقي، وأن المجنون مكرهٌ على ما هو فيه، وأنه بمنزلة المحبوس في ظلام الجنون. ومن ثمّ تدفع اللغة نفسها - من خلال أنظمتها وصيغها - بالمسؤولية عن كاهله.

ولا تتيح اللغة للمجنون امتلاك هويته، وتمنح هذا الحق للآخر/ العاقل، لكنها تعطي الحق في الانتساب إلى الجنون شريطة أن يكون ذلك الانتساب مدعى من موقع العقل. ولا يمكن للغة أن تتصور خلاف ذلك فتجعل من إسناد الفعل جن إلى الفاعل المعلوم للدلالة على علة «الجنون».

كما تفصل اللغة بين مسردين متجاورين، هما: مسرد الجنون، ومسرد الحمق، إذ تجعل من الجنون وما تحته احتجاباً وانقطاعاً عن النظام السائد (العقل)، في الوقت الذي يكون فيه الحمق وما تحته كسداً وعجزاً عن العمل بما في ذلك النظام.

واللغة بتقسيماتها وصيغها تحمل في معيتها كوناً دلاليّاً؛ و«تنقل إلى الإنسان نسقاً جاهزاً من القيم»^(١)، لأن اللغة أكثر من أن تكون مجرد وسيلة اتصال؛ إذ هي بنية تحتية تحدد وجود الأفراد وطريقة

(١) إبراهيم الحيدري: النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، مكتبة الساقى، لبنان - بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م (ص ٢٨٢)، وينظر: الطاهر لبيب: سوسولوجيا الغزل العربي: الشعر العذري نموذجاً، ترجمة: مصطفى المسناوي، لبنان - بيروت، ط ١، ١٩٨٨م (ص ٦٣).

سلوكهم، وتشترط فكرهم ورؤيتهم للعالم - كما أسلفنا^(١) -؛ فاللغة تجبر على القول، وتسرب مع صيغها اللفظية وجهة نظرها، ولذلك حكم رولان بارت على اللغة بأنها: «فاشية الطبع؛ ذاك أن جوهر الفاشية ليس هو أن تمنعك من القول، بل أن تجبرك على القول!»^(٢).



-
- (١) ينظر: عبد السلام بنعبد العالي، بين بين، دار توبقال للنشر، المغرب - الدار البيضاء، ط ١، ت ١٩٩٦ م (ص ٢٤-٢٥).
- (٢) العبارة منسوبة إلى رولان بارت، نقلاً عن د. محمد سبيلا، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان - بيروت، ط ١، ت ٢٠٠٩ م (ص ٩٢).

obeikandi.com